٨

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

صلة الحلاج بالله :

ونمشي مع الحلاج خطوات فى آفاقه الذوقية ، وفى مواجيده وحبه للذات الإلهية ، وفى تلك المجالات الروحية التى ابتدعها حول صلات العبد الولى المختار ، بمفيض الوجود ومبدعه وملهمه .

وصلة الحلاج بالله سبحانه ، تدور على قطبين : الحب الواله القوى الغلاب المذهل ، والفناء فى هذا الحب فناء شاملا يذوب فيه كل شىء مادى دنيوى ويحترق ليخلد .

ثم مرحلة السير فى هذا الحب ، ومجالات هذا السير الروحية ، بما فيها من الهامات وتجليات ومواجيد وأشواق وحيرة ودهشة وعذاب .

والمحب هنا فى عذاب ملهم ، يعذب فى بحثه عن مولاه ، ويعذب فى حبه له ، ويعذب فى حيرته حيال جبروته وآياته .

والعذاب فى الحب الإلهى أكبر خير يفيضه الله سبحانه على عبده ووليه المحبوب.

وإن لله سبحانه لنظرات واشراقات وزيارات للقلب المحب المعذب المحترق ، زيارات تهب ولها مقدسا ، يعقبه هجران يدفع إلى دهشة محلقة .

ومن كل هذه الانفعالات تنبثق مواجيد المعرفة العليا ، وتسبيحات الولاية العظمى ، وينبثق فوق هذا وذاك فى قلب المحب ، فيض إلهى يعبر عن الإرادة الإلهية ويقتبس من نورها وهداها .

وروح المحب الولى ، هو وحده الذى يظفر بهذا الفيض الإلهى ، لا عن طريق الحلول النحيزى ، بل بوساطة الفيض النورانى الذى يرفع أرواح الأولياء المحبين إلى المراتب القدسية .

وخلال هذا الفيض أو الاتصال ، تحدث الجذبة الروحية التى تصورها لنا تلك المناجاة المشعة المستمرة بين روح المحب ومحبوبه الاسمى الذى تشعر بوجوده فى أعماقها.

وحينئذن تتوالى ضراعات الروح وترتفع إلى مولاها بكل آلامها وآمالها وأشواقها فى لغة فوق لغة الألسن ، وفى تصوير لايمت إلى العلائق الدنيوية بصلة أو نسب.

يقول الحلاج :

« إعلم أن العبد إذا وحد ربه فقد اثبت نفسه ، ومن اثبت نفسه فقد اتى بالشرك الخفى ، وإنما الله تعالى هو الذى وحد نفسه على لسان من يشاء من خلقه » : ـ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ

والذين لايستطيعون متابعة مثل هذا الروح فى عروجه وسلوكه وحبه وعذابه وتجربته ، لايستطيعون أن ينكروا أنها محاولة فى المعرفة الذوقية ، وفى الحب والإيمان اليقينى ، ليست أقل شأنا فى تاريخ العقل الإنسانى من مسلك الفلاسفة ، ومنهج المتكلمين .

يقول الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى : « إذا كان وجود الخالق ووجود المخلوق واحداً ، فلا معنى لقيام حوار العشق بينه وبين الله »

وهذه آية الآيات على نفى الوحدة ، ونفى الحلول فى منهج الحب الإلهى الصوفى والحلاج من أكبر من تغنوا بالحب الإلهى ، ولعله أكبرهم عاطفة ، وأشدهم وجدا وولها .

يقول الحلاج : « إن المسافة بين النفس وبين الله تتوقف فى مقدارها على صفة العشق الإلهى »

ويقول : « إن شهادة الحمد هى شهادة حب ، وإن القلب الذى يعرف الحب لا يموت ابداً »

إن عذاب الحلاج فى حبه، وفى صلته بربه لتقدم لنا أروع نماذج الإيمان الصوفى لقد عاش الحلاج فى وجد وعذاب ، وفى سبحة علوية من إلهامات حبه وشوقه وذوقه .

وإنها لمواجيد حق وصدق ، وإن عجزت عنها فهوم الأكابر .

يقول الحلاج[1] .

مواجيد حق أوجد الحق كلها وإن عجزت عنها فهوم الأكابر
وما الوجد إلا خطرة ثم نظرة تنشى لهيبا بين تلك السرائر
إذا سكن الحق السريرة ضوعفت ثلاثة أحوال لأهل البصائر

والوجد والعذاب فيض ربانى على المصطفين الأحبة ، ولهذا فهو لا يصطنع فى وجده ما يلهبه ويثيره من سماع أو ذكر كما يصطنع غيره .

أنت المولة لى لا الذكر ولهنى حاشا لقلبى أن يعلق به ذكرى
الذكر واسطة تخفيك عن نظرى[2] إذا توشحه من خاطرى فكرى

وكل شىء فى الوجود مادى أو معنوى ، هو حجاب دون رؤية الله سبحانه، يجب الفناء عنها ، كما يجب أن يفنى الإنسان عن نفسه أيضاً .

بدا لك سر طال عنك اكتتامه وقد لاح صبح كنت أنت ظلامه
وأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليك ختامه[3]

إن تجربة الحلاج الصوفية فى المعرفة الإلهية لتجربة فذة عليها طابعه وحده ، لقد شارك الصوفية فى مواجيدهم وأذواقهم ، ثم ابتدع منهجا خاصا به هو سره الأكبر ، لقد جعل من الآلام شيئا مقصودا لذاته .

أريدك لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١٩
(٢) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١٨
(٣) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٢

فبكل مآربى قـــد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب[1]

والحب لذة لايعرفها إلا الصفوة من المحبين

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لخلق فى مكانك موضع

وحطتك روحى بين جلدى واعظمى

فـــكيف ترانى إن فقدتك أصنع[2]

ونحن ندنو رويدا من فلسفة الحلاج العليا فى الحب الإلهى .

وأى أرض تخلو منك حتى تعـــالوا يطلبونك فى السماء

تراهم ينظرون إليك جهرا وهم لايبصرون من العماء[3]

إنه كما يقول المستشرق ـ دى بور ـ يحاول أن يتذوق بروحه مايحاول المتكلمون والفلاسفة أن يصلوا إليه بالنظر العقلى . وإنه للحب العالى . الحب الذى تعجز الكلمات عن تصويره أو كما يقول « سمنون » لايعبر عن شىء إلا بما هو أرق منه ولاشىء أرق من المحبة فيما يعبر عنها .

يقول الحلاج :

لى حبيب ازور فى الخلوات حاضر غائب عن اللحظات

ماترانى أصغى إليه يسمع كى أعى مايقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولانط ق ولا مثل نغمة الأصوات

فكأنى مخاطب كنت إيا ه على خاطرى بذاتى لذاتى

حاضر غائب قريب بعيد وهو لم تحوه رسوم الصفات

هو ادنى من الضمير إلى الوهـ ـم وأخفى من لائح الخطرات[4]

ومن الكلم المضىء الذى يكشف عن منهج الحلاج وايمانه الذوقى ، تلك الدراسة التحليلية الرائعة التى أدارها الحلاج حول كيفية معرفة الإنسان لربه وخالقه قال فى الطواسين[5] وهى من أدق واعمق ماانفرجت عنه الاقلام .

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٧

(٢) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٣

(٣) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١

(٤) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١١

(٥) الطواسين ص ٧١ — ٧٢ — ٧٣

« ... من قال عرفته بفقدى ، فالمفقود كيف يعرف الموجود ، ومن قال عرفته بوجودى ، فقد يمان لايكونان .

ومن قال عرفته حين جهلته ، فالجهل حجاب ، والمعرفة وراء الحجاب لاحقيقة لها .

ومن قال عرفته بالاسم ، فالاسم لايفارق المسمى ، لأنه ليس بمخلوق .

ومن قال عرفته به فقد اشار إلى معروفين ؟ ومن قال عرفته بصفته ، فقد اكتفى بالصنع دون الصانع ، ومن قال عرفته بالعجز عن معرفته ، فالعاجز منقطع ، والمنقطع كيف يدرك المعروف .

ومن قال كما عرفنى عرفته ، فقد اشار إلى العلم فرجع إلى المعلوم ، والمعلوم يفارق الذات ، ومن فارق الذات كيف يدرك الذات .

ومن قال عرفته كما وصف نفسه ، فقد قنع بالخبر دون الاثر

ومن قال عرفته على حدين ، فالمعروف شيء واحد لايتحيز ولا يتبعض ؟

ومن قال : المعروف عرف نفسه فقد أقر بان العارف فى البين متكلف به ، لأن المعروف لم يزل كان عارفا بنفسه ياعجبا ممن لايعرف شعرة من بدنه ، كيف تنبت سوداء ، أم بيضاء ، كيف يعرف مكون الاشياء .

من لايعرف المجمل والمفصل ، ولايعرف الآخر والأول ، والتصاريف والعلل ، والحقائق والحيل ، لاتصح له معرفة من يزل .

سبحان من حجبهم بالاسم والرسم والوسم ، حجبهم بالقال والحال والكمال والجلال ، عن الذى لم يزل ولايزال . القلب مضغة جوفانية ، فالمعرفة لاتستقر فيها ، لأنها ربانية . من قال عرفته على الحقيقة ، فقد جعل وجوده أعظم من وجود المعروف ، لأن من عرف شيئا على الحقيقة فقد صار أقوى من معروفه حين عرفه .

ويقول الحلاج عن الخواص العارفين :

« فالخواص عباده لذين محاهم عن شواهدهم ، وصانهم عن أسباب الفرقة ، باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده ، فاى سبيل للشيطان اليهم ، وأى يد للعدو عليهم ، ومن اشهده الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم مغترقا فى ثقة التقدير ، لم يكن نهبا للاغيار ، فمتى يكون للغير عليه تسلط »

البحث مستمر